مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)




# دور العادات في الالتزام السلوكي: رؤية إنسانية.. شرعية(*)

**د/ سمية صالح الشيخ**
أستاذ مساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، السعودية

*) تاريخ تسليم البحث 2/4/2025 تاريخ قبوله للنشر 30/4/2025
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

# دور العادات في الالتزام السلوكي: رؤية إنسانية.. شرعية

**د/ سمية صالح الشيخ**
أستاذ مساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، السعودية

## الملخص

يَستعرض البحث دورَ العادات في التزام السلوك من خلال الدراسات الإنسانية التي اهتمتْ بأمرها، وأرجعتْ كل السلوكيات الفردية والاجتماعية لها، كما يَكشف عن دور العادات في التزام الطاعات من خلال الدراسات الشرعية التي أولتها اهتمامها، ورسمتْ طرق اكتسابها، وقد اتبعتُ في ذلك المنهج الوصفي التحليلي لأقوال علماء النفس وعلماء الاجتماع، ثُم التحليل للنصوص الشرعية التي تحدثتْ عن العادات مدحًا أو ذمًا.

وقد خرجتُ بعدة نتائج منها: دور العادات الفردية في تشكيل الشخصية الإنسانية، ودور العادات الاجتماعية في رسم الهوية الثقافية المجتمعية، ودور العادات في التزام الطاعات، ودور الإنسان في تحديد مسار حياته عن طريق اختياره لعاداته.

**الكلمات المفتاحية:** العادات، السلوك، الالتزام، المداومة.

# The role of habits in behavioral commitment: Human and Religious Vision

**Dr. Sumaiah Saleh Alshaikh**
Assistant Professor Department of Dawah and Islamic Culture
College of Dawah and Principles of ReligionUmm Al-Qura University
Kingdom of Saudi Arabia

## Abstract

This research examines the role of habits in behavioral commitment through human studies that have focused on this matter, attributing all individual and social behaviors to them. It also reveals the role of habits in the adherence to acts of obedience through Sharia studies that gave this topic considerable attention and outlined methods for acquiring such habits. To achieve this, I employed a descriptive-analytical approach to the statements of psychologists and sociologists, followed by an analysis of the Sharia texts that mention habits, whether in praise or criticism.

The study concluded with several findings, including the role of individual habits in shaping human personality, the role of social habits in defining societal cultural identity, the role of habits in the commitment to acts of obedience, and the role of humans in determining the course of their lives through their choice of habits.

**Keywords:** Habits, Behavior, Commitment, Consistency.

## مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أمّا بعد:

فلقد اهتمتْ الدراسات الإنسانية بالعادات؛ كونها تُشكِّل الوحدة الأساسية للسلوك المكتسب؛ لذا (فقد أولتها المدرسة السلوكية، التي تُنكر وجود استعداداتٍ فطرية لدى الفرد، اهتمامًا خاصًا)[1]، وأشارتْ لأهميتها في غرْس السلوك الإنساني.

كما اهتمتْ الدراسات الشرعية بها؛ تنبيهًا لدورها في الثبات على الطاعة، حيث إنّ استمرار الفرد على الطاعة يجعل منها عادةً ثابتة، والتخلي عنها مهمةً صعبة؛ ولذا أشارتْ النصوص لهذه الاستمرارية في معرض المدح لها، حيث يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، فلمْ يكتف بامتداح فِعل الصلاة، بل زاده تأكيدًا بلفظة الدوام عليها، فهُم (مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومُكمِّلاتها، وليسوا كمَن لا يَفعلها، أو يفعلها وقتًا دون وقت)[2]، وفي الحديث لما سُئلتْ عائشة رضي الله عنها عن عَمل النبي صلى الله عليه وسلم قالتْ: (كان عمله ديمةً)[3]، ولا تتأتى هذه المداومة إلا بمزاولة العبادة مرارًا حتى يتقبّلها العقل بكثرة تكرارها؛ لتصبح لديه عادةً يصعب تركها، مما يؤكد الدور البارز للعادات في التزام الطاعات.

ولأهمية هذا الدور للعادات فقد ارتأيتُ البحث فيها، بالإضافة للأسباب الآتية:

١- التنبيه على أهميتها في الالتزام السلوكي الفردي.

٢- بيان دورها في تشكيل الهوية الثقافية للمجتمع.

## مشكلة البحث:

يَستعرض البحث دور العادات في الالتزام السلوكي من خلال وجهة نظر الدراسات الإنسانية والشرعية على حدٍ سواء.

## تساؤلات البحث:

١- ما دور العادات الفردية؟

٢- ما دور العادات الاجتماعية؟

٣- ما أهمية العادات في الدراسات الشرعية؟

٤- ما دور العادات في الدراسات الشرعية؟

## أهداف البحث:

يهدف إلى إيضاح دور العادات في الثبات السلوكي على الطاعات، كما يَهدف إلى بيان دور الفرد في صناعة عاداته الإيجابية أو السلبية، وذلك بالاستنارة بالرؤيتين الإنسانية والشرعية.

---

(١) العقيبة، هند، هلا قرطالي، العادات الاجتماعية، المفهوم والنشأة والوظائف، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، الآداب والعلوم الإنسانية، ص٤٠٩، ٤٣(٤)، (٢٠٢١).

(٢) السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٨٨٧.

(٣) النيسابوري، مسلم، الحجاج، صحيح مسلم، المحقق: محمد عبد الباقي، برقم: (٧٨٣)، (١/٥٤١).

**منهج البحث:**

المنهج الوصفي التحليلي لأقوال علماء النفس وعلماء الاجتماع، ثُم التحليل لنصوص الشرع التي تحدثتْ عن العادات إيجابًا أو سلبًا.

**تقسيمات البحث:**

**المبحث الأول: دور العادات في الدراسات الإنسانية**

**المطلب الأول:** دور العادات الفردية.

**المطلب الثاني:** دور العادات الاجتماعية.

**المبحث الثاني: دور العادات في الدراسات الشرعية**

**المطلب الأول:** أهميتها.

**المطلب الثاني:** بيان دورها.

**الدراسات السابقة:**

اتجهت الدراسات البحثية للعادات إلى طريقين: أولهما المتحدثةِ عن أثر العادات على السلوك الإنساني، ومن أهمها: العادات الاجتماعية: المفهوم والنشأة والوظائف، هند العقيبة، هلا قرطالي، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، الآداب والعلوم الإنسانية، ٤٣(٤)، (٢٠٢١)، ويتحدث البحث عن العادات الاجتماعية، ومراحل نشأتها، والوظيفة التي تُؤديها في المجتمعات.

وثانيهما: المتحدثةِ عن محاولة تصحيح العادات المجتمعية، ومن أهمها: دور الدعاة في تصحيح العادات الاجتماعية لدى المرأة الفلسطينية في ضوء المعايير الإسلامية وسُبل تطويره، سمر مقداد، قسم أصول التربية، تربية إسلامية، الجامعة الإسلامية، غزة، (٢٠١٤)، وتتحدث البحث عن دور الدعاة في الحد من انتشار العادات الخاطئة من خلال المواعظ الدينية، وذلك عن طريق قياس درجة ممارستهم لدورهم، من خلال دراسةٍ ميدانية للواقع الفلسطيني.

وكِلا الطريقين مختلفٌ عن بحثي، حيث لمْ أعثر- على حد علمي- على دراسةٍ تتحدث عن أثر العادات على السلوك من ناحيةٍ شرعية، أمّا أثرها من ناحية الدراسات الإنسانية فكثير، وسأستفيد منه في التأصيل التاريخي أولًا، ثُم لإثبات تميُّز الرؤية الشرعية في هذا الجانب.

**التمهيد:**

**التعريف بمصطلح العادات:**

**تعريف العادات في اللغة:** تَرجع لفْظة العادات إلى الجذر الثلاثي عوْد، و(العادة: كل ما اعْتيد حتى صار يُفعل من غير جهدٍ)[1]، و(العادة: الديدن يُعاد إليه: تكرير الشيء دائمًا أو غالبًا على نهجٍ واحد بلا علاقةٍ عقلية)[2]،

(١) أبو جيب، سعدي، القاموس الفقهي لغةً واصطلاحًا، ص٢٦٥.

(٢) رضا، أحمد، معجم متن اللغة، (٤/٢٣٧).

والمعاوِد: المواظب في أمره(١)، وقد سُميت العادة بذلك؛ (لأنّ صاحبها لا يَزال مُعاودًا لها)(٢)، وللعادة في لغة العرب معانٍ كثيرة تدور حول الاستمرار على الشيء حتى يَصعب الفِكاك منه، ومن معانيها أنها تأتي بمعنى الدِّين، (والدِّين: العادة؛ قال كعب: فمَرّ على نَحْرِهِ والذِّرَاعِ ... ولم يَكُ ذاك له الفِعْل دِينا)(٣)، كما تأتي بمعنى الدُّربة، (يُقال: قد تدرّب كذا وكذا؛ أي: قد تعوّد)(٤)، والدَأب، وهي: (العادة الملازمة)(٥)، ومن معانيها أيضًا: الإلف الناتج عن الملازمة(٦)، وقد (أنشد ابن الأعرابي: تعوّدْ صالح الأخلاق إني.. رأيتُ المرء يألفُ ما استعاد)(٧)، كما تأتي العادة بمعنى الخُلُق، (والخلُق العادة التي يعتادها الإنسان ويأخذُ نفسه بها على مقدارٍ بعينه، فإنْ زال عنه إلى غيره قِيل تخلّق خلُقه، وفي القرآن: قال الله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧])(٨).

ومنْ كل هذه المعاني يُستخلص أنّ لفظة العادة تَرجع إلى تكرار أمرٍ حتى يصبح عادةً وطبْعًا لدى صاحبه، وكما قيل (في المثل الأجنبي: العادةُ طبيعةٌ ثانية)(٩)، ومن العادات ما يكون اختيارًا، ومنها ما يكون اضطرارًا تَفرضه الطبيعة الإنسانية، (فالاختيار كتعوّد شُرب النبيذ وما يجري مجراه مما يُكثر الإنسان فِعله فيعتاده ويَصعب عليه مفارقته، والاضطرار مثل أكل الطعام وشرب الماء؛ لإقامة الجسد وبقاء الروح وما شاكل ذلك)(١٠)، وسيتركز البحث على النوع الأول من العادات، أي الاختيارية التي يُكثر الإنسان فِعلها حتى يَعتادها.

**تعريف العادات اصطلاحًا:**

(هي الأمر الذي يَتقرر بالنفوس ويكون مقبولًا عند ذوي الطباع السليمة بتكراره المرة بعد المرة، على أنّ لفظة العادة يُفهم منها تكرُّر الشيء ومعاودته بخلاف الأمر الجاري صدفةً مرةً أو مرتين، ولمْ يعْتده الناس، فلا يُعد عادةً ولا يُبنى عليه حكم)(١١)، كما تعني: (ما استمرَّ الناس عليه على حكم المعقول، وعاودوا له مرّةً بعد أخرى، ومنه قولُ الفقهاء: العادة محكَّمةٌ والعُرف قاضٍ)(١٢)، وتتعدد أنواع العادات بحسب رأي العلماء إلى عاداتٍ اجتماعية، وعاداتٍ فردية، كما سَيظهر في المباحث إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر: ابن سيده، علي، المخصص، (٣٢٦/٣).

(٢) القزويني، أحمد، مجمل اللغة، ص٦٣٥.

(٣) الشيباني، إسحاق، الجيم، (٢٦٦/١).

(٤) البندنيجي، اليمان، التقفية في اللغة، ص١٥٩.

(٥) انظر: جبل، محمد، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، (٦٢٧/٢)، ابن عباد، إسماعيل، المحيط في اللغة، (٣٧٦/٩).

(٦) انظر: الهروي، محمد، تهذيب اللغة، (٢٧٢/١٥).

(٧) ابن سيده، علي، المحكم والمحيط الأعظم، (٣٢١/٢).

(٨) العسكري، الحسن، الفروق اللغوية، ص١٣٧.

(٩) عمر، أحمد، معجم اللغة العربية المعاصرة، (٣٣٢/١).

(١٠) العسكري، الحسن، الفروق اللغوية، ص٢٢٦.

(١١) أفندي، علي، درر الحكام في شرح مجلة الأحكام، (٤٤/١).

(١٢) البركتي، محمد عميم الإحسان، قواعد الفقه، ص٣٦٩.

## المبحث الأول: دور العادات في الدراسات الإنسانية

لقد تعددتْ الدراسات الإنسانية – النفسية والاجتماعية – المتجهة لبيان دور العادات سواءً كانت فردية، أم اجتماعية في ترسيخ الثبات على الأفعال حتى تُصبح جزءًا من طبْع الإنسان الذي ألِفه وتعوّده، وقد اتجه المبحث الأول للتعريف ببعضها وفق المطالب الآتية:

### المطلب الأول: دور العادات الفردية

#### أولًا: تعريفها

(هي أنماطٌ سلوكية متكررة يتصرف الفرد بمقتضاها على نحوٍ خاص، حتى تُصبح ممارسته لها لا شعورية، ولا يُمثل الخروج عليها ضررًا للمجتمع، وهي في الأعم الأغلب متعلقةٌ بإشباع حاجات الفرد البيولوجية من مأكلٍ ومشربٍ وملبس)(١)، وتَنشأ العادة لدى الفرد من خلال تكراره لفعلٍ من الأفعال، حيث (يَرتبط مفهوم العادة فلسفيًا بعملية التكرار التي أَلفنا مشاهدتها فترسّخت في الأذهان وارتبطتْ بها كترابط السبب بالنتيجة)(٢)، وتتميز العادة الفردية بأنها (أسلوبٌ فردي وظاهرة شخصية، والدليل على ذلك أنه يمكن أنْ تتكون العادة الفردية وتُمارس في حالات العزلة عن المجتمع لسببٍ أو آخر)(٣)، ومما يُساعد على إيجادها ابتداءً امتلاك الفرد القدرة على اختيار نمطٍ سلوكي معين، والالتزام به حتى يُصبح عادةً متمكنة(٤)، أو صفةً ملازمة تكونتْ نتيجة التكرار الدائم.

#### ثانيًا: دورها

للعادات الفردية دورها المهم في تشكيل الشخصية، وقدْ تنبّه "أرسطو" لذلك، حيث يقول: (ما نَفعله بشكلٍ متكرر هو ما نحنُ عليه، ومن ثَمّ فإنّ التميّز عادةً وليس فعلًا)(٥)، كما عرَف الدارسون للسلوك هذا الأثر، فالإنسان ما هو إلا مجموعةُ عاداتٍ شَكّلتْ على مرور الأيام طبْعَه وتوجهاته في هذه الحياة، حيث (تتكون شخصيتنا في الأساس من عاداتنا، "تَزرع فكرة تحصد عملًا، وتزرع عملًا تحصد عادة، وتزرع عادةً تحصد شخصية، وتزرع شخصية تحصد مصيرًا")(٦)، والإنسان في سلوكه لا يُعبر عن قراراتٍ يتخذها بشكلٍ يومي بل عادات أيضًا، (وهذا ما أكّدته ورقة بحثية نُشرت في جامعة ديوك الأمريكية عام (٢٠٠٦)، أنّ (٤٠٪) من تصرفاتنا التي نقوم بها بشكلٍ يومي هي عادات عقلية)(٧)، ولذا فللعادات سطوةٌ كبيرة على السلوك، فهي (قوةٌ في ذاتها، بحيث يمكن القول أنه

---

(١) علي، هالة بكر، العادات الاجتماعية رؤية تحليلية، ص٣٦، المجلة العلمية، كلية الآداب، جامعة أسيوط، ع(٦٨)، أكتوبر، (٢٠١٨).

(٢) الاتجاهات نحو العادات والتقاليد كظواهر اجتماعية في المجتمع الأردني، ص٤٧٣، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، ع(١٧٠)، ج٣، أكتوبر، (٢٠١٦).

(٣) علي، هالة، العادات الاجتماعية، ص٣٧، المجلة العلمية.

(٤) انظر: العزب، إيمان صابر، وحدة مقترحة لتنمية بعض عادات العقل لدى طلاب الشعب العلمية بكلية التربية جامعة بنها، بحث مقدم ضمنًا لمتطلبات درجة دكتوراه الفلسفة في التربية، ص٨، كلية التربية، قسم المناهج وطرق التدريس، جامعة بنها، (٢٠١٢).

(٥) كوفي، ستيفن آر، العادات السبع للناس الأكثر فعالية، ص٥٨.

(٦) كوفي، ستيفن، العادات السبع، ص٥٨.

(٧) العبادي، ضاري، سيكولوجية عادات العقل والسلوكيات الذكية: التعود العقلي، ص٥٦.

ليسـتْ هناك عقيدةٌ وبُنية أو قانون أخلاقي أو دليل علمي يمكن أنْ يُداني في سيطرته على الناس سطوة الاعتياد على عملٍ معين)[١]؛ ولذا اهتم علماء النفس والاجتماع بالعادات؛ اعتقادًا منهم بدورها المحوري في المجتمعات، وقدرة الفرد على اختيار ما يميل له من عادات؛ (لأنّ الحياة هي تكوين عادات، فسـواءً كانت هذه الفكرة مثبطة للعزيمة أولًا، فإنّ كل شـيء يعتمد على العادات التي كوّناها، فإذا طورنا عادات غير منتجة، فإنّ هذه حقيقة غير مشـجعة ومخيفة، ولكنْ سـتكون أخبارًا جيدة وعظيمة إذا قمنا بتطوير عادات حياتية جيدة)[٢]، والجميل في العادات قدرة الفرد على صنعها، وهذا ظاهرٌ، فكمْ من العادات بدأَ فيها الشخص وكررها حتى أصبحتْ سِمةً بارزة في شخصيته، بحيث (يمكن أنْ نعتبر عملية التنشئة الاجتماعية عمليةً مستمرة؛ نظرًا لأنّ الأدوار الخاصة بوضعٍ اجتماعي معين لا تُكتسب عادةً دفعة واحدة بمجرد اكتساب الفرد لهذا الوضع، ولكنها تُتعلم مرة ومرات على امتداد فترة شغل الإنسان لهذا الوضع، فالأب لا يُحيط بكل جوانب دوره الجديد بمجرد ميلاد طفلٍ له، ولكنه يَعرف جانبًا منه وابنه رضيع، ثم وابنه في مرحلة ما قبل المدرسة، ثم يتعدل هذا الدور وتتعين إضافة معلوماتٍ وخبرات إليه عند التحاق هذا الابن بالتعليم، ثم يَدخل هذا الدور في مرحلةٍ جديدة باستقلال الابن بعد العمل أو الزواج وهكذا، فاكتساب الدور وتعلّمه يتمُّ بشكلٍ متصل)[٣]، ومن هنا فللتكرار المستمر دورٌ واضح في خلْق العادات وبقائها، و(العادات تشبه الحبل الغليظ ننسج أحد خيوطه كل يوم)[٤]، ورغم هذا الأثر للعادة في تشكيل السلوك، إلا أنها ليستْ ثابتة بحيث لا يمكن التخلي عنها، فللفرد القدرة على صنعها أو تركها، رغم صعوبة هذا الترك، (ولكني أعلم أنها ليست حلًا سريعًا؛ لأنها تتطلب عمليةً والتزامًا لا حدود له)[٥]، ومن هنا فقد عرفنا إمكانية تعلم العادات وتركها من خلال آلية التكرار المستمر لها؛ لذا ارتكزتْ بعض الدراسات على هذا التكرار وقامتْ بدراسة معدله حتى تتمكن من تغيير السلوكيات، استنادًا لما يُعرف بالخط القاعدي، (وهو حدوث سلوكٍ معين بتكرار معين في ظل ظروف بيئية عادية)[٦]، حيث يتم دراسة معدل هذا التكرار للسلوك المقصود، ثم زيادة التكرار له إنْ كان الهدف تثبيته.

إذن: يستطيع الفرد ملاحظة معدل التكرار لأي سلوكٍ معتاد؛ ليُبقيه أو يُغيّره، ومن ثَم تنشأ تلك العادات بالاختيار أولًا لما نميلُ إليه من سلوكياتٍ دون غيرها، فـ(كل العادات عواطف، وأنها جميعًا لها قوة دافعة، وأنّ التنظيم النفسي الذي يتكون من مجموعة من الأفعال المعيَّنة هو جزءٌ لا يتجزأ من تكويننا الأساسي، ولا تُؤدي هذا الغرض مجرد مجموعةٍ من أنواع الاختيار الشعورية العامة، وجميع العاداتِ هي دعوةٌ لأنواعٍ معينة من النشاط، والعادات تكوّنِ الذات، وهي الإرادة بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معنى، وهي التي تكوِّن رغباتنا الفعالة وتَمدنا

(١) الاتجاهات نحو العادات والتقاليد كظواهر اجتماعية في المجتمع الأردني، ص٤٨٢.

(٢) العبادي، ضاري، سيكولوجية عادات العقل، ص٧١.

(٣) الجوهري، محمد، المدخل إلى علم الاجتماع، ص٤٠.

(٤) كوفي، ستيفن، العادات السبع، ص٥٨.

(٥) المرجع نفسه، ص٥٨.

(٦) عبد الحميد، جابر، مدخل لدراسة السلوك الإنساني، ص١١٣.

بقدراتنا العاملة، وتحكم أفكارنا، محدِّدةً أيها يَظهر ويقوى، وأيها يمر من الضـوء ليبتلعه الظلام)(١)، ومن ثَمّ فالعادة ليست روتينًا مجردًا، بل هي اختيارٌ بعناية؛ لأنّ (جوهر العادة هو تنظيمٌ مكتسب لطرقٍ وأساليب الاستجابة للقيام بأعمالٍ معينة، والعادة تعني حساسيةً خاصة لأنواعٍ معينة من المثيرات أو قدرةً على الاتصال بها، وتعني مقاومة الرغبات أكثر مما تعني مجرد تكرارٍ لأفعالٍ معينة)(٢)، وهذا الاختيار الواعي ابتداءً هو الذي يَدفعنا للتكرار؛ لِما نجده من ميلٍ وعاطفة تجاه السلوك ميلًا يَخلق إلفًا ويصنع تعودًا، حيث (يَحدث أنْ نُشبع إحدى الغرائز بنحوٍ من أنحاء السلوك نُوجّه إليه بالاستهواء أو بالتقليد، أو بالصدفة البحتة، ثم يتكرر هذا النحو برغبتنا مرةً، ومرةً لِما نجد فيه من لذة، فلا نلبثُ أنْ نشعر باكتساب ميلٍ إلى مزاولته، وبعد أنْ كان الأداء غير يسيرٍ في المبدأ، وفيه انتباه وجهد، ومحاولة وخطأ، وقدر كبير أو قليل من الوجدان، فإنه لا يلبث أنْ يصبح أقرب للسلوك الآلي الذي يُؤدى بسرعةٍ ومهارة وإتقان، وبغير كبير انتباه أو جهد،... ولا شك أنّ الطبيعة تُساعدنا على مثل هذا الاكتساب بفضل مرونة الجهاز العصبي، وإلا لَما أمكن أنْ يتحقق كل هذا التكيف مع الطبيعة والتأقلم الملاحظ في حياتنا وحياة الحيوان، وللذاكرة أثرها بالطبع في اختزان التجارب التي يمكن استغلالها في تنحية الأخطاء ونحن في دور الاكتساب)(٣)، وفي هذا الإطار خرجتْ الكثير من الدراسات النفسية التطبيقية التي أثبتتْ تلك القدرة الفردية على خلْق عاداتٍ معينة تُساعد على الوصول إلى الأهداف المرغوبة، ومن هذه الدراسات على سبيل المثال: الدراسات التي تحدثتْ عن دور عادات العقل في الوصول للتفوق والتميز، تلك العادات التي يُدرّب الفرد عَقله فيها على التحليل والمناقشة والبحث عن الأدلة، حتى تتكوّن لديه مهارة الاستنباط واستخلاص النتائج بأسلوبٍ لا يَتوفر في غيره من الأقران الذين لمْ تتدرب عقولهم على تلك العادات الخاصة بالتحليل والنقاش، حيث يمتلك الشخص القدرة على تعويد العقل ذاته على السلوك الذي يَختاره لنفسه؛ ولذا ركّزتْ العديد من الدراسات على أهمية عادات العقل في التعلُّم والتحصيل(٤)، وربطتْ بين ارتفاع مؤشر العادات العقلية، وبين الطلاب الموهوبين، حيث وجدتْ أنه كلما كان المؤشر مرتفعًا عند هؤلاء كلما أَوجد لديهم مواهبَ لا توجد في غيرهم(٥)؛ لذا سعتْ الولايات المتحدة الأمريكية إلى غرْس هذه العادات العقلية لدى الطلاب منذ سنوات التعليم الأولى، (حيث تمّ تطوير قاعدة بياناتٍ للكتب حول الموضوعات المهمة في العلوم بالاستناد إلى التوصيات الصادرة عن العلوم لجميع الأمريكان "SFAA"، وكانتْ عادات العقل أكثر هذه الموضوعات حضورًا لديهم، وهذا يؤُكد على أنّ اكتساب واستخدام عادات العقل مهمٌ جدًا في مجتمع اليوم)(٦).

---

(١) ديوي، جون، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، ترجمة: محمد لبيب، ص٥٠.

(٢) العبادي، ضاري، سيكولوجية عادات العقل، ص٥٧.

(٣) عويضة، كامل، علم نفس الشخصية، ص٧٣.

(٤) للتمثيل، انظر: جعرير، سليمة، عادات العقل وعلاقتها بالتفكير ما وراء المعرفي لدى الطلبة الجامعيين، مجلة أفكار وآفاق، ١٠(١)، (٢٠٢٢)، جامعة قسنطينة، الجزائر، ص٣٣٠.

(٥) انظر: وجود الخالدي، عادات العقل وعلاقتها بالقدرة العقلية وفق نظرية ستيرنبرج لدى الطالبات الموهوبات في مدينة الدمام، ص٤١٣، المجلة العلمية، كلية التربية، جامعة أسيوط، ٣٥(٨)، ج٢، أغسطس (٢٠١٩).

(٦) منذر بشارة، أثر استراتيجية مبنية على تفعيل عادات العقل في تعديل المفاهيم البديلة في العلوم وتنمية مهارات العلم الأساسية لدى طلبة المرحلة الأساسية، ص٤٨٦، مجلة دراسات العلوم التربوية، الجامعة الأردنية، ٤٣(١)، (٢٠١٦).

وهذه الدراسات تُنبئنا عن قدرة الفرد تعويد عقله على السلوك المراد حتى يتجه له دون تفكير، وقد أظهرتْ الأبحاث التي أجراها علماء النفس "جوديث"، و"ويندي"، (أنّ العديد من السلوكيات الروتينية – وخاصة تلك التي نَنخرط فيها يوميًا – تُفسَّر على نحوٍ أفضل من حيث مدى تكررها في الماضي أي "قوة العادة"، وليس من حيث الأهداف أو النيات، وفي حين أنّ الروتين باستطاعته فِعليًا أنْ يَجعل دماغنا "يَعمل لصالحنا بدلًا من أنْ يعمل ضدنا")(١).

إذن يظهر دور العادة الواضح في برمجة العقل ليتجه الوجهة التي نُريدها بعد أنْ يكون تعوَّد على هذه الممارسة فترةً طويلة، ومن ثَم يتجه لفعلها بعد ذلك لا شعوريًا، فنحن (أحيانًا لا نكون واعين بالأفكار التي تُؤثر على سلوكنا؛ فالأفكار عادةً ما تظهر بسرعة بصورةٍ تلقائية خارج نطاق وعينا، وأحيانًا أخرى نتصرف بحكم العادة، متجاهلين الأفكار الأصلية التي أدتْ إلى هذه العادات... إننا عادةً لا نكون واعين بالأفكار التي تُوجه سلوكنا عندما تتحول أفعالنا إلى روتين)(٢).

وأخيرًا، فقد ظهرَ من خلال الدراسات النفسية تركيزها على أمرين مهمين في العادات الفردية: أولهما: دورها في الثبات على السلوك المراد، وثانيهما: قدرة الفرد على صُنع العادات التي تناسبه، والتخلي عما لا يناسبه منها.

## المطلب الثاني: دور العادات الاجتماعية

### أولًا: تعريفها

(هي القواعد السلوكية المتكررة التي تَرجع إلى المجتمع الذي يَعيش فيه الفرد، وتَستند هذه القواعد السلوكية إلى فكرٍ اجتماعي، وبكثرة تكرارها تصبح أنماطًا سلوكية...، ومثال ذلك عادات التحية وآداب المائدة، ... وطرق الخطبة والزواج)(٣)، كما أنها (تنشأ من اتفاقٍ جمعي يصب في مصلحة المجتمع ككل؛ لأنّ الإنسان كائنٌ اجتماعي بطبعه فلا بد أنْ يُمارس هذه العادات في إطار عملية التفاعل مع غيره من الأفراد ضمن المجتمع، فمن خلال العقل الجمعي تَصنع الجماعات عاداتها الخاصة بها، والتي هي جزءٌ من ثقافتها، فالإنسان بمفرده غير قادرٍ على ذلك)(٤)، وهناك بعض علماء الاجتماع يجعلون العادة والتقاليد شيئًا واحدًا سوى بعض الاختلافات البسيطة بينهما، حيث يعتقدون بوحدة طبيعتهما، أما الاختلاف بينهما فـــ(يتمحور في المسار والمحور الذي تتخذه كل منهما، فبينما تتمحور العادات حول العنصر الثقافي ذي الارتباط الشخصي كالمأكل والملبس والمشرب، فإنّ التقاليد تتمحور حول العنصر الثقافي ذي الارتباط العام كتقاليد الاحتفال بالأعياد)(٥).

---

(١) بولدراك، راسل، صعوبة التخلص من العادات، ولِمَ يتمسك بها دماغنا، ترجمة: عائشة يكن، ص١٦-١٧.

(٢) جرينبرجر، دينيس، كريستين بادسكي، العقل قبل المزاج: غيِّر مشاعرك بتغيير أفكارك، ص٤٤-٤٥.

(٣) علي، هالة بكر، العادات الاجتماعية، رؤية تحليلية، ص٣٦، المجلة العلمية.

(٤) العقيبة، هند، هلا قرطالي، العادات الاجتماعية: المفهوم والنشأة والوظائف، ص٤١٠، مجلة جامعة تشرين.

(٥) المرجع نفسه، ص٤١١.

**ثانيًا: دورها:**

لقد تحدّث العديد من علماء الاجتماع عن الدور الكبير للعادات الاجتماعية في ضبط السلوك وتشكيل الهوية المجتمعية[1]، حيثُ يَظهر دورها في ســـلطتها التي تفوق القانون في نظر بعضـــهم، إذ (تقوم العادات بمهمة الجهاز الأمني الذي يَضبط ويُنظم سـلوك الأفراد ويَضع لهم معايير السـلوك الاجتماعي السـليم في ضـوء ما تنصُّ عليه الجماعة من قوانين غير مكتوبة تصـوغها من خبرتها المتراكمة عبر الزمن، وتُلزمهم بتطبيقها بما يتناسـب مع نُظمها وقواعدها وأهدافها وتفرض على من يُخالفها وينحرف عن حدودها المرســـومة أنواعًا من الجزاء الاجتماعي المتمثِّل بالسـخط أو السـخرية، أو الاسـتهجان، أو الاضـطهاد والنبذ مما يدفعهم للانصـياع لها عن رضًـا وقبول طوعًا أو كراهية، فبذلك تكون بمثابة التشــريعات التنظيمية للمجتمع)[2]، كما يظهر هذا الدور في قدرتها على رســم الهوية الثقافية المختلفة للمجتمعات، وذلك رغم أنّ تاريخ علم الاجتماع يُؤكد على تســاوي الناس من حيث الطبيعة البشـرية منذُ أنْ خلَقهم الله، إلاّ أننا نرى تنوعًا هائلًا لسـلوكيات المجتمعات البشـرية، الذي يَرجع في تمايزه لطبيعة تعامل الإنسان مع ما يراه أمامه، ولعاداته التي شكلتْ بيئته الثقافية المختلفة[3].

وهذه الثقافات المجتمعية المتنوعة تنشـأُ من رحم المجتمع نفســه، حيث يتعود الأفراد فيه على سـلوكياتٍ مقبولة وأخرى مرذولة اجتماعيًا، فتتشـكل لديه هوية ثقافية سـلوكية عامة يَسـير وِفقًا لها، فيما يُعرف بإطار العادات التي تميز مجتمعًا عن آخر، وهي لا تنشــأ دفعةً واحدة، بل تمر بمراحلَ مختلفة من التطبع بها حتى تُصــبح عادةً، حيث (تَنشأ العادات الاجتماعية في عقول الناس، وتتجسدُ في أفعال أعضـاء الجماعة، وتنتشر عن طريق التقليد تدريجيًا أو عن طريق المحاولة والخطأ، وبمرور الوقت تَكتســب العادات الجمْعية قوة التقاليد؛ لأنها تمثل طرقًا مألوفة للإنســان في عمل الأشـــياء)[4]، كما تتأكد أهميتها الاجتماعية في رسمها للهوية الأخلاقية لمجتمعٍ من المجتمعات، حيث يتشـارك أفراده نفس الشعور تجاه الأمور الأخلاقية استحسـانًا أو استقباحًا، شعورًا مستمدًا من وجهة نظر المجتمع نفســه، حيث يُرجع بعض علماء الاجتماع العواطف الأخلاقية للمجتمع، (تلك العواطف التي تُعد جزءًا جوهريًا من هذه الشـخصية الخُلقية؛ بل تُعد في الواقع المحرك الرئيس لها.. فالشـعور بالواجب، والشـعور بالمسؤولية، والفزع من الجريمة، وحب الخير واحترام العدل، كل هذه العواطف التي يَعتقد الضـــمير الفردي المرهف من الوجهة الخُلقية أنه يَســتمدها من نفســه، ومن نفســه فقط، تَرجع إلى أصــلٍ اجتماعي على الرغم من ذلك كله، فجميع هذه العواطف تسـتمد قوتها من المعتقدات والتصـورات الاجتماعية المشـتركة بين جميع أعضـاء الطائفة الاجتماعية)[5]، ومن خلال هذا المنظور الاجتماعي فنحنُ أسْــرى العادات المجتمعية التي نشــأنا بها، نتجهُ للفعل المقبول اجتماعيًا

(١) حيث يُرجعون كل المشـــكلات الاجتماعية إلى ميول الأفراد في المجتمعات القديمة، انظر: الجوهري، عبد الهادي، تاريخ الفكر الاجتماعي، ص٨.

(٢) العقيبة، هند، العادات الاجتماعية: المفهوم والنشأة والوظائف، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، ص٤١٦.

(٣) انظر: الجوهري، محمد، علياء شكري، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا، ص٢٢.

(٤) علي، هالة، العادات الاجتماعية: رؤية تحليلية، المجلة العلمية، ص٣٤.

(٥) بريل، ليفي، الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية، ترجمة: محمود قاسم، ص٣٣٠.

طواعيةً دون التفكير في قبولنا الفردي له؛ مما يؤكد سلطة العادة المجتمعية، فـــ(ليس العقل هو الذي يُنظم حياتنا الاجتماعية، بل العادة، وحجج الفلسفة كلها عبثٌ في عبث أمام قدرة العادة)(١)؛ ولذا يرى بعض فلاسفة علم الاجتماع أننا إذا أردنا تغيير عاداتنا الاجتماعية فعلينا الاهتمام بتاريخ ظهورها في مجتمعاتنا القديمة على اعتبار أننا أسرى لعاداتٍ مجتمعية ظهرتْ قبْل وجودنا في هذه الحياة(٢).

وأمام هذه المبالغة لدورها، إلاّ أنّ علم الاجتماع نفسه يؤكد القدرة على التحكم فيها، وإنْ كان بسيطًا في نظر بعضهم، حيث أشارتْ بعض الدراسات إلى إمكانية تغيير القواعد الأخلاقية التي تَحكم العادات الأخلاقية لمجتمعٍ من المجتمعات، (إذْ يُزودنا العلم بالوسائل التي تُستخدم في تعديل الطبيعة المادية على نحوٍ يَعود علينا بالنفع، فليس هناك سببٌ مبدئي يحوْل دون أنْ يُزودنا العلم بنفس القدرة على الحقيقة الاجتماعية متى تقدَّم تقدمًا كافيًا، وفي الواقع تُبين لنا التجارب أنّ الأخلاق العمَلية في طريق التطور، حقًّا إنه تطورٌ بطيء، لكنه يكاد يكون متواصلًا، وهناك عددٌ كبير من الأسباب التي تتدخل إمّا لتعجيل هذا التطور وإما لإبطائه، وفي بعض الأحوال لمْ يكن التفكير الفلسفي أقل هذه الأسباب أهمية)(٣)، وهذا ظاهرٌ جدًا، فالسلوكيات التي أصبحتْ على مدار الأيام عادات أخلاقية مجتمعية، قد أوتي الإنسان القدرة على التحكم فيها، وإنْ رآه بعضهم بسيطًا، مقارنةً بالقواعد العملية السابقة التي يَفترض وجودها في المجتمع، مثل "ليفي بريل" الذي يرى أنّ الأخلاق موجودةٌ في المجتمع بطريقةٍ إلزامية حقيقية متوارثة إمّا لمعتقدٍ أو لفكرة، فلا العلماء ولا الفلاسفة لهم القدرة على صناعة هذه الأخلاق أو هدمها، ويقول: (وظيفة العلماء هامة جدًا أو متواضعة في الوقت نفسه، وهي تنحصرُ بأسرها في دراسة الأخلاق لمعرفتها، وفي معرفتها لتعديلها فيما بعد على أسسٍ عقلية بالقدر المستطاع)(٤)، وهذا مما يتفق مع الرؤية الدينية التي تجعل الأديان سببًا لوجود الأخلاق في المجتمعات.

وأخيرًا: فقد استعرضنا الخلاف الكبير – بين علماء النفس، وعلماء الاجتماع – حول أثر العادة الفردية أو المجتمعية على السلوك الإنساني، حيث لمْ يتفق العلم على أكثرها قدرةً على صناعة السلوك، فبينهما من التفاعل والاختلاط الشيء الكبير، عبّر عنه عالم الأحياء تيموثي سميث بقوله: (إنّ محاولة إرجاع السلوك إلى الوراثة أو البيئة مثل محاولةِ إثبات إنْ كان الكعك يُصنع من السكر أم من الدقيق)(٥)، كما تكلَّم "جون ديوي" كلامًا منطقيًا في باب الفلسفة الأخلاقية موضحًا الفرق بين إرادة الفرد، والظروف الاجتماعية، مؤكِّدًا عدم القدرة على الفصل الدقيق بينهما؛ مبينًا أنّ العادة تبدأُ من الفرد في رغبته للمضي فيها، ثم تتأكدُ بقبول المجتمع بأحكامه لها(٦)، ومن ثَم فالعادة عمليةٌ تبادلية بين الفرد والمجتمع، فكِلاهما مؤثِّر، ومتأثر، وسيظهر ذلك بوضوحٍ أكثر في الرؤية الشرعية المتوازنة لهما إن شاء الله تعالى.

---

(١) فندريس، جوزيف، اللغة، تعريب: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، ص٤١٦.

(٢) انظر: الجوهري، عبد الهادي، تاريخ الفكر الاجتماعي، ص٨.

(٣) بريل، ليفي، الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية، ترجمة: محمود قاسم، ص١٦٨.

(٤) المرجع نفسه، ص٢١٦.

(٥) برافين، لورانس، علم الشخصية، ترجمة: عبد الحليم السيد، أيمن عامر، ص٤٠١.

(٦) انظر: ديوي، جون، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، ترجمة: محمد لبيب، ص٤٢-٤٣.

## المبحث الثاني: دور العادات في الدراسات الشرعية

لقد جاءتْ العلوم الشرعية لافتةً الانتباه إلى دور العادات بطرقٍ مباشرة وغير مباشرة، مادحةً للعادة الحسنة، ومحذِّرةً من العادة السيئة، وهذا ما سيتضح وفق المطالب الآتية:

### المطلب الأول: أهميتها

#### أولًا: بيان فضل التعوَّد على الطاعات

لقدْ تضافرتْ نصوص الكتاب والسنة على الترغيب في استدامة العمل الصالح، حيث مدَح الله تعالى المؤمنين به بصفاتٍ كثيرة، ولفتَ الانتباه إلى استمراريتهم على العمل، لا مجرد الإتيان به، حيث يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، وهم (الذين لا يَتركون فرضهَا، ولا يقطعون ما اعتادوا من نفلِها)[١]، وقيل هم: (الذين إذا عَملوا عملًا داوموا عليه وأثبتوه)[٢]، كما يقول سبحانه في نفس السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، فقد تأكّد ثناء القرآن عليهم عندما خَصّ دوامهم على الطاعة لا مجرد العمل بها، حيث عدّد الله في الآيات صفات المؤمنين، وكرّر صفة الدوام والمحافظة على الصلاة، (ومجيء الصلة جملة اسمية دون أنْ يُقال: الذين يَدومون؛ لقصد إفادتها الثبات تقويةً كمفاد الدوام)[٣]، إذن: فالمداومة على الطاعات من صفات المتقين، ومن وصايا الله عز وجل لخير خلْقه وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ حيث جاء في القرآن قولُ عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣١]، كما أمَر الله صفيّه بذلك، فقال: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، فالطاعة لا زمنَ لها تتوقف عنده، بل هي فعلٌ ممتد حتى الوفاة، (فإنْ قيل: فما فائدة قول: "حتى يأتيك اليقين" وكان قوله:" واعبد ربك" كافيًا في الأمر بالعبادة، قيل له: الفائدة في هذا أنه لو قال: "واعبد ربك" مطلقًا ثم عَبده مرةً واحدة كان مُطيعًا، وإذا قال "حتى يأتيك اليقين" كان معناه لا تُفارق هذا حتى تموت، فإنْ قيل: كيف قال سبحانه: "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين"، ولمْ يقل أبدًا، فالجواب أنّ اليقين أبلغ من قوله: أبدًا؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد...، والمراد استمرار العبادة مدة حياته)[٤]، ومنْ هنا تظهر أهمية الاستمرار على الطاعة والتزامها حتى الوفاة،

كما جاءتْ نصوص السنة أيضًا بالتحبيب في الدوام على الطاعات، فعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ أحب الأعمال إلى الله ما دُووم عليه وإنْ قل)[٥]، وأكملتْ رضي الله عنها: (وكان آل محمد صلى الله عليه وسلم إذا عَملوا عملًا أثبتوه)[٦]، وعن علقمة (قال: سألتُ أم المؤمنين عائشة، قال

---

(١) النسفي، نجم الدين، عمر، التيسير في التفسير، (١٤/١٥).

(٢) ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، (٢٢٦/٨).

(٣) ابن عاشور، محمد، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (١٧١/٢٩-١٧٢).

(٤) القرطبي، محمد، الجامع لأحكام القرآن، (٦٤/١٠).

(٥) النيسابوري، مسلم، صحيح مسلم، برقم ٧٨٢، (٥٤٠/١).

(٦) المرجع نفسه.

قلتُ: يا أم المؤمنين كيف كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل كان يخصُّ شيئًا من الأيام؟ قالت: لا، كان عمله ديمةً)(١)، وعن القاسم بن محمد عن عائشة قال: (وكانتْ عائشة إذا عَملتْ العمل لَزمته)(٢).

كما أنّ الله سبحانه يُثيب المؤمن المتعود على الطاعة حينما يُصيبه عارضٌ يمنعه ما تعوّد عليه، بأنْ يكتبها له تامةً كأنّه ما زال عاملًا لها، كما وَرد في الحديث: (إذا مَرض العبد، أو سافر، كُتب له مثل ما كان يَعمل مقيمًا صحيحا)(٣)؛ جزاءً للمستمر على الطاعة دائمًا، حيث أراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (أنّ لهم أجرهم في حال الكِبر والضعف عمّا كانوا يفعلونه في الصحة غير مقطوعٍ لهم؛ فلذلك كل مرضٍ من غير الزمانة، وكل آفةٍ من سفر وغيره يَمنع من العمل الصالح المعتاد؛ فإنّ الله قد تَفضَّل بإجراء أَجره على من مُنع ذلك العمل)(٤)، وفي الحديث دلالةٌ على أثر العادة في هذا الأجر العظيم، فـ(ليس هذا الحديث على العموم، وإنما هو لمنْ كانت له نوافلٌ وعادةٌ من عَملٍ صالح فمنعه الله منها بالمرض أو السفر، وكانتْ نيته لوْ كان صحيحًا أو مقيمًا أنْ يَدوم عليها ولا يقطعها)(٥)، كما أنّ هذا الأجر غير المنقطع مرتبطٌ بِنية الدوام والاستمرار على العمل، حيث يقول ابن حجر: (إنما هي باعتبار نيته أنه لو كان صحيحًا لدام على ذلك العمل الصالح، فتفضَّل الله عليه بهذه النية)(٦)، ومنْ هنا فقد اتضح فضل التعوّد والاستمرار على الطاعة في نيل الثواب من أكرم الأكرمين، وفي هذا من الدلالة ما لا يخفى على لفْت الانتباه في النصوص الشرعية لأهمية العادة السلوكية، حيث توجهتْ لامتداح المداوِم للفعل السلوكي دون الذي يَفعل الأمر مرةً، ويتركه مراتٍ، كما جاءتْ باستمرار الثواب للمعتاد على العمل الصالح حتى في حال تركه لعذرٍ؛ وذلك لتعوده على عمله ونيته الاستمرار على هذه العادة دائمًا.

ومن خلال كل ما ذُكر من نصوص يتبين اهتمام الشرع بالعادات الصحيحة الفردية، حيث جاءتْ النصوص بتحبيب الاستمرار عليها أبدًا.

**ثانيًا: حث الشرع على ممارسة العادات**

لقد بيّنتْ النصوص الشرعية إمكانية تعلُّم العادات، لتتفق مع الدراسات الإنسانية في هذا الجانب، فقد أشار القرآن إلى منْح الله سبحانه للإنسان القدرة على ذلك متى ما امتلك الرغبة للتغيير، مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]، كما دلّنا النبي صلى الله عليه وسلم على إمكانية الأمر أيضًا من خلال التكرار والتدرج في الطاعة.

---

(١) المرجع نفسه، برقم ٧٨٣، (٥٤١/١).

(٢) المرجع نفسه، برقم ٧٨٣، (٥٤١/١).

(٣) البخاري، محمد، صحيح البخاري، المحقق: مصطفى البغا، برقم: (٢٨٣٤)، (١٠٩٢/٣).

(٤) ابن بطال، علي، شرح صحيح البخاري، (١٥٤/٥).

(٥) المرجع نفسه، (١٥٤/٥).

(٦) العسقلاني، أحمد ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (١٠٩/١٠-١١٠).

ومن أقواله في ذلك: (إنما العلم بالتعلم)[١]، و(إنما الحلم بالتحلم، منْ يتحرّى الخير يُعطه، ومن يتق الشر يُوقه)[٢]، كما يقول النبي الكريم: (عليكم بالصدق، فإنّ الصدق يَهدي إلى البر، وإنّ البر يَهدي إلى الجنة، وما يَزال الرجل يَصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقا، وإياكم والكذب، فإنّ الكذب يَهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يَهدي إلى النار، وما يزال الرجل يَكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذَّابا)[٣]، وفي الحديث حثٌ على الاعتناء بالجانب الخُلقي، ففي معنى "عليكم بالصدق"، أي: (الزموا الصدق)[٤]، تلك الملازمة الموصِلة لمرتبة الصدِّيق، المراد بها: (أنه يتكرر منه الصدق حتى يَستحق اسم المبالغة في الصدق)[٥]، كما حذّر من التساهل في الكذب؛ (لأنَّه إذا تساهل فيه كثُر منه فعُرف به وكَتبه الله لمبالغته صدِّيقًا إنْ اعتاده، أو كذّابًا إنْ اعتاده، ومعنى يُكتب هنا يُحكم له بذلك ويَستحق الوصف بمنزلة الصدِّيقين وثوابهم، أو صفة الكذَّابين وعقابهم)[٦]، وهكذا فقد أمرَ النبي صلى الله عليه وسلم بتكرار الصدق وملازمته حتى يُصبح عادةً لديه يَعرفها عنه الناس، ويصل لمرحلة أنْ يكون صدِّيقًا عند الله، وهذه المرحلة لا يَصلها من كان يَصدُق مرةً، ويَكذب أخرى، بل منْ كان الصدق عادته.

كما علَّمنا هذا النص آلية اكتساب العادة الصالحة من خلال تكرارها، "وما يَزال الرجل يَصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقا"، كما بيّن مغبة التعود على الفعل الشائن فإنه يُؤدي إلى اتصاف الفرد به والتصاقه به كطبْعه وخُلقه، فقال: (وما يَزال الرجل يَكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّابا)[٧]، وفي هذا (إشارةٌ إلى أنّ منْ تَوقّى الكذب بالقصْد الصحيح إلى الصدق صار له الصدق سجيةً حتى يستحق الوصف به، وكذلك عكسه، وليس المراد أنّ الحمد والذم فيهما يَختص بمن يَقصد إليهما فقط، وإنْ كان الصادق في الأصل ممدوحًا والكاذب مذمومًا)[٨]، كما أنّ اختصاص مدْح النبي صلى الله عليه وسلم لمن لازمَ فِعل الصدق حتى صار له عادةً وخُلُقًا يؤكِّد أنّ العادة ليستْ أمرًا فطريًا نُولد به، بل هي صفةٌ مكتسبة يَقع بسببها الثواب والعقاب.

ومن ثَمّ فعلى علماء الشريعة الاهتمام بأمر العادات الاجتماعية، والسعي لتصحيح الخاطئ منها[٩]؛ اقتداءً بخير البشر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين ما فتئوا يُحاربون تلك العادات التي وقفتْ أمام دعواتهم المباركة.

---

(١) البخاري، محمد، صحيح البخاري، وعلّقه البخاري برقم ١٠، (٣٨/١)، وانظر: السخاوي، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، برقم: (٢١١)، ص١٨٤.

(٢) الطبراني، سليمان، المعجم الأوسط، المحقق: طارق عوض الله، برقم: (٢٦٦٣)، (١١٨/٣)، وفيه محمد بن أبي يزيد، وهو كذاب. الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، برقم ٥٣٥، (١٢٨/١)، وللحديث بلفظ: إنما العلم بالتعلم شواهد كثيرة تقويه، انظر: الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، (١٣٦/١).

(٣) النيسابوري، مسلم، الحجاج، صحيح مسلم، برقم: (٢٦٠٧)، (٢٠١٣/٤).

(٤) الزيداني، مظهر الدين، المفاتيح في شرح المصابيح، (١٧٥/٥).

(٥) العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري، (٥٠٨/١٠).

(٦) النووي، يحيى، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (١٦٠/١٦).

(٧) النيسابوري، مسلم، صحيح مسلم، برقم: ٢٦٠٧، (٢٠١٣/٤).

(٨) العسقلاني، ابن حجر، (٥٠٨/١٠-٥٠٩).

(٩) لمعرفة دور العلماء في هذا الإطار، انظر على سبيل المثال: مقداد، سمر، دور الدعاة في تصحيح العادات الاجتماعية لدى المرأة الفلسطينية في ضوء المعايير الإسلامية وسبل تطويره، ص١١٤، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، قسم أصول التربية، تربية إسلامية، كلية التربية، (٢٠١٤).

## المطلب الثاني: بيان دورها

### أولًا: دورها التعبدي

لقد تعرّف القارئ في المبحث الأول على رأي الدراسات الإنسانية لدور العادة في الالتزام السلوكي، وكذلك كان للدراسات الشرعية رأيها المهم في هذا الباب، حيث جاءتْ بالربط بين العادة والثبات السلوكي على الأفعال؛ وذلك لأنَّ الاستمرار على الطاعة يَدفع الشخص للتعوّد عليها، ويصعِّب ترَكها، وفي هذا المعنى يقول الليث: (وفي كلام بعضهم: الزموا تُقى الله واستعيدوها، أي تَعوَّدوها)[١]، وفي هذا المعنى تُسمي العرب العادة بالدين، ويقول القزويني: (فأمّا قولهم إنّ العادة يُقال لها دِين، فإنْ كان صحيحًا؛ فلأنّ النفس إذا اعتادتْ شيئًا مَرّت معه وانقادت له، ويُنشدون في هذا: كدِينك من أم الحويرث قبْلها ...، والرواية "كدأبك"، والمعنى قريب)[٢]، وقد جاءتْ الآيات القرآنية مادحةً لهذا التعود على الطاعات بصيغٍ متعددة، منها الإتيان بتلك الأفعال الممدوحة بصيغة المضارع، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ويُصلُّون بصيغة المضارع، وصيغةُ المضارع من حيث هي لا تُفيد دوامًا ولا استمرارًا، كما عليه المحققون، وأدلته غنيةٌ عن البيان، ولكنْ قد تُفيد ذلك بمعونة القرائن، والقرائن هاهنا إنّما تُفيد نحو ما يُفيده قولك: إنّ زيدًا يزورنا، أي أنّ ذلك في حكم العادة له، بحيث لا يَقطعها مدةً طويلة تُعَدّ في العرف قطعًا للعادة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣]، وليس المعنى أنّهم لا يَفترون عن الإنفاق طرفةَ عين، كما لا يخفى، وإنّما المعنى أنّ الإنفاق عادةٌ لهم)[٣]، وهذا المعنى دقيقٌ جدا؛ لأنّ العبادات لا يتحقق المقصود منها إلا بتكرارها وملازمتها حتى تُصبح عادةً سلوكية ظاهرة لأهل الطاعات، ومن هذا قول الفقهاء: العادة محكّمة، أي: (إنّ مادة العبادة تقتضي تكرار الشيء، وعوْده تكرارًا كثيرا يَخرج عن كونه واقعًا بطريق الاتفاق)[٤]، وتُؤدي العادة دورها في العبادات من خلال المساعدة على الالتزام بها، دون تحولها لعادةٍ طبْعية خالية من النية؛ لارتباط قبولها بنية التعبد لله، حيثُ (شُرعت النية لتمتاز العبادة عن العادة – والعبادة أي التقرُّب إلى الله تعالى تكون بالفرْض والنفْل والواجب فشُرعت لتميّز بعض العبادة عن بعض)[٥]؛ ولذا اهتم العلماء ببيان الفارق الدقيق بين العادة والسنّة؛ خشية تحولها لعادةٍ، فقالوا: (العادة ما يُديم الانسان فِعله من قِبل نَفسه، والسنّة تكون على مثالٍ سَبق)[٦]، والمقصود بدورها أنّ فعل العبادة المتكرر يُصبح عادةً سلوكية يَصعب التخلي عنها؛ مما يُسهل أمرها على النفس التي اعتادتها[٧]، وهذا التكرار المقصود، أي المبني على نية، هو الطابع لأفعال النبي صلى الله عليه وسلم، والمميز لها

---

(١) الأزهري، محمد، تهذيب اللغة، (٨٣/٣).

(٢) القزويني، أحمد، معجم مقاييس اللغة، (٣١٩/٢).

(٣) المعلمي، عبد الرحمن، الفوائد اللغوية، (٤٣٢/٢٤).

(٤) الحموي، أحمد، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، (٢٩٥/١).

(٥) نكري، عبد النبي، دستور العلماء، تعريب: حسن هاني، (٢٩٦/٣).

(٦) الجزائري، نور الدين، معجم الفروق اللغوية، ص٣٤٦.

(٧) وهذا المعنى الذي يتجه البحث له.

عن الأفعال البشرية التي لا يُقصد بها العبادة والتقرُّب، فهذه الأفعال لمْ تُصبح سنّةً يَعرفها غالب المحيطين به إلا بعد أنْ تكررت منه واعتادها، فيقول العلماء في ذلك: (ومن السنن: سنةُ هدى: هي ما واظبَ عليها النبي صلى الله عليه وسلم مع التركِ أحيانًا على سبيل العبادة، ويقال لها: السنة المؤكدة، وما كانتْ على سبيل العادة فهي السنة الزائدة وإنْ واظب عليها النبي صلى الله عليه وسلم)[١]، ويقول العلماء في هذه السنة الزائدة، أنّ مواظبة النبي كانتْ (على سبيل العادة، وتكون إقامتها حسنة، ولا يتعلق بتركها كراهةٌ ولا إساءة، ومثالها: سيْر النبي صلى الله عليه وسلم في قيامه، وقعوده، ولباسه، وأكله)[٢].

ومن هنا فقد بينتْ آيات القرآن دور العادة في التزام الطاعات، كما بيّن التزام النبي عليه السلام بها دورها السلوكي الكبير.

ولا يَقتصر دور العادات على الثبات على العبادات، بل يتعداه لدورها في تشكيل الجانب الأخلاقي التعبُّدي، وقد تنبّه العرب لذلك، فقد زخرتْ المعاجم بالمعاني اللغوية الرابطة بين العادات والأخلاق، حيث أتتْ العادة بمعنى الخُلق في كثيرٍ من المواضع[٣].

كما جاء القرآن لافتًا الانتباه إلى دور التعود على الطاعات في تهذيب الجانب الخُلقي لدى الممارِس له، حيث تحدثتْ آياته الكريمة عن أمورٍ خُلقية عُولجت بالدوام على الطاعة، حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٣٤] فقد تكرّر مدْح الملازمة في موضعين من هذه الآية الكريمة التي تَصف بعضًا من الجانب الخُلقي المراد التحلي به، فهم مُصلون ودائمون عليها، ("إلاّ المصلين" استثناءٌ للموصوفين بالصفات المذكورة بَعد من المطبوعين على الأحوال المذكورة قبل؛ لمضادة تلك الصفات لها من حيث إنها دالةٌ على الاستغراق في طاعة الحق والإشفاق على الخلْق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإيثار الآجل على العاجل)[٤]، حيث يَتبين أنّ للعادة التي يُمارسها الفرد أثرًا إيجابيًا في الثبات الأخلاقي القِيمي، كما يظل لهذا الالتزام ببعض العادات الأخلاقية دورٌ آخر، متمثلٌ في الاستقرار النفسي والهدوء الطبْعي؛ لأنّ التعود على أمرٍ يَخلق نوعًا من الإلف تجاهه، كما أنّ الاستمرار عليه يُساعد في خلْق الضبط الانفعالي تجاه الأمور الأخرى.

---

(١) البركتي، محمد عميم الإحسان، التعريفات الفقهية، ص١١٧.

(٢) أبو جيب، القاموس الفقهي لغةً واصطلاحًا، ص١٨٥.

(٣) انظر: ابن سيده، المخصص، (٢٣١/١).

(٤) البيضاوي، ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٢٤٦/٥).

وقد لفتَ الله سبحانه – خالق النفس والعالم بأسرارها– الأنظار إلى دور العادة في الراحة النفسية، فلمْ يكتفِ سبحانه بالإشارة إلى دور الصلاة في ضبْط المشاعر النفسية، بل أكّد على الدوام عليها، وفي هذا إشارةٌ واضحة لدور التعود على العمل في المساعدة على الطمأنينة النفسية، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٣]، فكُلُّ المشاعر النفسية المرتبطة بالشعور علاجها في الصلاة، حيث (يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان وما هو مجبولٌ عليه من الأخلاق الدنيئة: "إنّ الإنسان خلق هلوعًا"، ثم فسّره بقوله: "إذا مسه الشر جزوعًا"، أي: إذا أصابه الضر فَزِع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أنْ يحصل له بعد ذلك خير، "وإذا مسه الخير منوعًا"، أي: إذا حصلت له نعمة من الله بَخِل بها على غيره، ومنع حق الله فيها)[1]، كما أنّ (انتصاب هلوعًا وجزوعًا ومنوعًا على أنها أحوالٌ مقدرة، أو محققة؛ لكونها طبائعَ جُبل الإنسان عليها، والظرفان معمولان لجزوعًا ومنوعًا، إلا المصلين أي: المقيمين للصلاة، وقيل: المراد بهم أهل التوحيد، يعني أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع، والجزع، والمنع، وأنهم على صفاتٍ محمودة وخلالٍ مرضيّة)[2]، وهذا يُظهر الدور الكبير للعادات السلوكية الصحيحة في الاتزان النفسي والانضباط الخُلُقي.

وقد أثبتت الدراسات البيولوجية اليوم دور الشعائر الدينية المتكررة في تلطيف خلايا المخ، حيث (إنّ القيام بأداء هذه الطقوس يُحدث عادةً شعورًا بالراحة، وإحساسًا بالأمان للحظاتٍ على الأقل لدى منْ يقومون بها)[3]، وأشارتْ في الوقت نفسه لدور التكرار لهذه العبادات؛ لأنّ اللحظات القصيرة لفعلها لا يتحقق بها المقصود، حيث (يتطلّب الحفاظ أو الإبقاء على التأثيرات المرغوبة للطقوس ضرورة التكرار لها، كما يَحدث تمامًا عندما يكون على المرء أنْ يقوم بالتدريب العنيف أكثر من مرةٍ أسبوعيًا وعلى مدى أسابيع قليلة من أجل أنْ يَصل إلى الحد الأعلى من هذه التأثيرات أو إلى أي حدٍ منها، على الإطلاق، وغالبًا ما تنتج التأثيرات سريعة الانقضاء من تلك الحقيقة التي فحواها أنه عندما تتوقف الطقوس يَعود الناس إلى حياتهم اليومية المملوءة بالضغوط)[4].

وأخيرًا، فللعادة أثرٌ لا يخفى في الجانب التعبدي حسب طبيعة العادة، فكما أنّ للعادة الصحيحة أثرها الإيجابي، فللعادات الخاطئة أثرها السيء عندما تُصبح مُعوقًا في طريق الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]، حيث يتمثل صدودها فيما اعتادتْ عليه من سلوكٍ يُخالف ما أُمرت به، فقد (صدّها عن الإيمان العادة التي كانتْ عليها؛ لأنها نَشأتْ ولمْ تَعرف إلا قومًا يَعبدون الشمس)[5]، فلمْ يصدها عن عبادة الله جهلها، وعدم تعقلها، بل دين قومها واتباعها لآثارهم[6].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٨/٢٢٦).

(٢) الشوكاني، محمد، فتح القدير، (٥/٣٥٠).

(٣) فيرمان، جي، بيولوجيا السلوك الديني: الجذور التطورية للإيمان والدين، ترجمة: شاكر عبد الحميد، ص٢٦٣.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٦٦.

(٥) الزجاج، إبراهيم، معاني القرآن وإعرابه، (٤/١٢٢).

(٦) انظر: الطبري، ابن جرير، جامع البيان، (١٨/٨٠).

وقد لفتَ القرآن الانتباه إلى دور هذه العادات في الصد عن دعوات الأنبياء جميعًا، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٤]، أي: (ما هذا الذي نفعله إلا عادةَ من قَبلنا وأخلاقهم)[١]، وفي هذا دلالةٌ واضحة على أثر العادات في دفع صاحبها للسير على خُطا منْ سَبقه بلا تفكير، حيث وضّح القرآن (أنّ هؤلاء الكفار لمْ يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريقٍ عقلي ولا بدليلٍ نقلي، ثم بيّن أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف، وإنما ذكَر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين)[٢]، وهذا الذم ليس متجهًا للعادة بإطلاق، بل هو متجهٌ للعادة السيئة، (ألا ترى أنّ الله سبحانه أثنى على يوسف عليه السلام في القرآن حيث قال: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٧-٣٨] فلمّا كان آباؤه عليه وعليهم السلام أنبياءَ مُتبعين للوحي وهو الدين الخالص الذي ارتضاه الله، كان اتِّباعه آباءه من صفات المدح)[٣]، وفي هذا دلالةٌ واضحة على دور العادات في الثبات السلوكي، سواءً كان هذا السلوك إيجابيًا أم سلبيًا.

**ثانيًا: دورها التشريعي**

للعادات دورها التشريعي الواضح في أمرين:

**الأول: عادات النبي صلى الله عليه وسلم**

لقد اهتم السلف عليهم رحمة الله من الصحابة وتابعيهم من علماء الشريعة بالعادات التي داوم عليها النبي صلى الله عليه وسلم؛ لِما لها من دورٍ كبير في معرفة سنّة النبي وأفعاله الدائمة؛ سعيًا للاقتداء به كما أمَرنا الله سبحانه بقوله: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فلوْ لمْ يستمر النبي على فعلٍ محدَّد لما عَرفنا الأمور التي داوم على فِعلها، والأمور التي تجنَّب فعلها على الدوام.

ولا أبالغُ إذا قلتُ إنّ المصدر التشريعي الثاني المتمثل في السنّة مبنيٌ على عاداتٍ مارسها النبي صلى الله عليه وسلم وتكررتْ منه حتى عُرِف بفِعلها، والمتأمل لكتب السلف في مختلف فروع العلوم الشرعية يجد اتفاقًا ظاهرًا على وصفهم لأفعال النبي صلى الله عليه وسلم بالعادة، وهذا مشاهدٌ بكثرة في كتب السيرة والحديث والفقه، فجميعها تَبني عِلمها على تلك العادات النبوية، ومن الشواهد في كتب السنة ما رواه عقبة قال: (صليتُ وراء النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة العصر، فسلَّم ثم قام مُسرعًا، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حُجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال: ذكرتُ شيئًا من تبرٍ عندنا، فكرهتُ أنْ يحبسني، فأَمرتُ بقِسمته)[٤]، ويُرجع ابن رجب رحمه الله سبب فزع الناس هنا لما اعتادوه من أفعال النبي، قائلًا: (فيه: دليلٌ

(١) المرجع نفسه، (٦١٧/١٧).

(٢) الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، (٦٢٨/٢٧).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٢١٣/٢).

(٤) البخاري، صحيح البخاري، برقم: ٨١٣، (٢٩١/١).

على أنّ الإسراع بالقيام عقب السلام من غير تمهلٍ لمْ يكن من عادة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا تعجَّبوا من سرعته في هذه المرة، وعَلم منهم ذلك؛ فلذلك أعلمهم بعذره)[١]، وفي نصٍ آخر: (عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان إذا تكلّم بكلمةٍ أعادها ثلاثًا، حتى تُفهم عنه)[٢]، وهذا القول من الصحابي مبنيٌ على معرفته بعادات النبي الكريم، ففي (قوله عن النبي صلى الله عليه وسلم "أنه كان" أي: من عادة النبي صلى الله عليه وسلم، والمراد أنّ أنَسًا مخبرٌ عمّا عَرفه من شأن النبي صلى الله عليه وسلم وشاهدَه، لا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أَخبره بذلك)[٣]، وفي حديثٍ آخر استفاد منه الشرّاح حُكمًا شرعيًا متعلقًا بالصلاة، ودليلهم في ذلك فِعل العادة، كما في هذا النص: (هذا يدل على أنّ عادة النبي صلى الله عليه وسلم المستمرة الصلاة في نَعليه، وكلام أكثر السلف يدل على أنّ الصلاة في النعلين أفضلُ من الصلاة حافيًا)[٤]، وكما أنّ الصحابة رضوان الله عنهم قد اهتموا بعادات النبي صلى الله عليه وسلم في الفِعل، فقد اهتموا أيضًا بعاداته في الترك، وجعلوها من مراتب السنة المعتمِدة على ملاحظة الصحابي لترك النبي لفعلٍ من الأفعال، والمتمثلة في: (أن ينقل الصحابي التَرْك من عادة النبي صلى الله عليه وسلم في موقفٍ متكرر)[٥]، ومن أهم الأمور الدالة على مكانة العادة في معرفة السنة النبوية ابتناء الأحكام الفقهية عند علماء الفقه على ما لاحظوه من عادات النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما رُوي (أنّ أبا بكْرة جاء ورسول الله راكعٌ، فركع دون الصف ثم مَشى إلى الصف فلما قَضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته، قال: أيكم الذي ركع دون الصف ثم مشى إلى الصف؟)[٦]، فهذا الفعل من الصحابي الذي دَفعه للتكبير عند باب المسجد، ثم فِعل النبي صلى الله عليه وسلم بعدم انتظاره بَنى عليه الفقهاء بعض الأحكام المتعلقة بالإمامة، في مسألة إذا أحسّ الإمام بداخلٍ لمْ يَنتظره، يقولون تفسيرًا لفعل الصحابي: (لوْ كان من عادة النبي صلى الله عليه وسلم انتظار الداخل لمْ يَسبق بالتكبير ويُكثر المشي في الصلاة)[٧]، كما اهتم السلف بكل عادات النبي صلى الله عليه وسلم حتى التي لا ترتبط بحكمٍ شرعي أو أمرٍ نبوي؛ وذلك تأسيًا منهم به، ومعرفةً بأهمية عاداته، ومن ذلك الاهتمام بلبس النبي صلى الله عليه وسلم للعمامة في صلاته، حيث يقول منصور ناصف: (ولو تنزَّلنا معهم وقُلنا إنها عادة فإنها أشرفُ العادات؛ لأنها عادة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أفضل الخَلق بإجماع المسلمين، والمثل السائر: عادات السادات سادات العادات)[٨]، وهكذا فقد تتبع السلف عليهم رحمة الله عادات النبي صلى الله عليه وسلم في الفِعل والترْك، كما اهتم المصنفون في العلوم الشرعية بعاداته، وفي هذا من الدلالة ما لا يخفى على التزام النبي الكريم بعاداتٍ محددة قلّما تخلف عنها إلا لسببٍ ظاهر، كما وضّح دورها التشريعي.

---

(١) الحنبلي، ابن رجب، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٧/٤٤٢).
(٢) البخاري، صحيح البخاري، برقم: ٩٥، (١/٤٨).
(٣) العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (١/١٨٩).
(٤) الحنبلي، ابن رجب، فتح الباري، (٣/٤٣).
(٥) الإتربي، محمد، التروك النبوية: تأصيلًا وتطبيقًا، (١/٢٧٨).
(٦) السجستاني، أبي داود، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين، برقم: ٦٨٤، (١/١٨٢)، وصححه الألباني برقم: (٦٨٥)، في: صحيح سنن أبي داود، (٣/٢٧٦).
(٧) القدُّوري، أحمد، التجريد، (٢/٨٣٧-٨٣٨).
(٨) ناصف، منصور، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، (١/١٦٩).

**ثانيًا: عادات المجتمع المسلم**

لَمْ تكتف النصوص الشرعية بالحث على اعتياد الطاعات الفردية، بل جاءتْ باعتبار العادات الاجتماعية المتعارف عليها في كثيرٍ من الأحكام الشرعية، وإنْ دل فإنما يدلُّ على أهمية العادة المجتمعية في الشرع، حيثُ جعلتها من القواعد الشرعية المعتبرة في التشريع، وكما قيل: (من القواعد "تحكيم العادة" يعني أنّ العادة محكَّمة، أي: معمولٌ بها شرعًا، ومن أدلة هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فالمراد ما يَعرفه الناس ويتعارفونه فيما بينهم مما لا تَرده الشريعة، وكل ما تكرّر من لفظ المعروف في القرآن، نحو: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، فالمراد ما يتعارفه الناس من مثل ذلك الأمر، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[(١)]، فإنه دليلٌ على اعتبارِ ما المسلمون عليه إمّا من جهة الأمر الشرعي، أو من جهة العادة المستقرة)[(٢)]، وهذا الجانب التشريعي كبيرٌ جدًا، ويكفينا فيه المعرفة بمراعاة الشرع للعادات الاجتماعية عند إصدار الأحكام؛ اعترافًا بدورها، واهتمامًا بأمرها.

**الخاتمة:**

الحمد لله على تمام هذا البحث الذي أرجو أن يُسهم في تسليط الضوء على السلوك البشري من وجهة نظرٍ شرعية.

**وقد خرجتُ فيه بالنتائج الآتية:**

١- الدور البارز للعادات في الدراسات الإنسانية المتمثل في قُدرتها على تشكيل شخصية الإنسان، وإبراز هويته الثقافية المجتمعية.

٢- الدور المهم للعادات في الدراسات الشرعية المؤدي لالتزام الطاعات.

٣- القدرة الإنسانية للفرد على اختيار عاداته.

**كما ختمتُ بالتوصيات الآتية:**

١- الاهتمام البحثي بالنظريات السلوكية الإنسانية؛ وذلك: لفهم الشخصية الإنسانية والسعي لإصلاحها، وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف لدراسة السلوك البشري بين علم النفس وعلم الشرع؛ لإظهار تميز الأخير واستنارته بوحي خالق النفس الإنسانية.

٢- تسليط الضوء على المعالجات الشرعية للسلوك البشري في المؤتمرات العلمية.

---

(١) النيسابوري، مسلم، صحيح مسلم، برقم: ١٧١٨، (٣/١٣٤٣).

(٢) البعلي، أحمد، الذخر الحرير بشرح مختصر التحرير، ص٧٩٨.

## المراجع:

### الكتب:

أبو جيب، سعدي. *القاموس الفقهي لغةً واصطلاحًا*. ط٢، دار الفكر: دمشق، سورية، (١٩٨٨).

أفندي، علي. *درر الحكام في شرح مجلة الأحكام*. ترجمة: فهمي الحسيني، ط١، دار الجيل: (١٩٩١).

ابن بطال، علي، خلف. *شرح صحيح البخاري*. تحقيق: ياسر إبراهيم، ط٢، مكتبة الرشد: الرياض، السعودية، (٢٠٠٣).

ابن سيده، علي، إسماعيل. *المخصص*. المحقق: خليل جفال، ط١، دار إحياء التراث العربي: بيروت، (١٩٩٦).

ابن سيده، علي، إسماعيل. *المحكم والمحيط الأعظم*. المحقق: عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، (٢٠٠٠).

ابن عاشور، محمد، الطاهر. *تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد*. الدار التونسية للنشر: تونس، (١٩٨٤).

ابن كثير، إسماعيل، عمر. *تفسير القرآن العظيم*. المحقق: سامي السلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع: الرياض، السعودية، (١٩٩٩).

الأزهري، محمد. *تهذيب اللغة*. المحقق: محمد عوض، ط١، دار إحياء التراث العربي: بيروت، (٢٠٠١).

الإتربي، محمد. *التروك النبوية: تأصيلًا وتطبيقًا*. ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: قطر، (٢٠١٢).

البخاري، محمد. *صحيح البخاري*. المحقق: مصطفى البغا، ط٥، دار ابن كثير: دمشق، (١٩٩٣).

البركتي، محمد. عميم الإحسان، *التعريفات الفقهية*. ط١، دار الكتب العلمية: (٢٠٠٣).

البركتي، محمد. عميم الإحسان، *قواعد الفقه*. ط١، الصدف ببلشرز: كراتشي، (١٩٨٦).

البعلي، أحمد. *الذخر الحرير بشرح مختصر التحرير*. المحقق: وائل الشنشوري، ط١، دار الذخائر: القاهرة، مصر، (٢٠٢٠).

البندنيجي، اليمان. *التقفية في اللغة*. المحقق: خليل العطية، وزارة الأوقاف، إحياء التراث الإسلامي، مطبعة العاني: بغداد، الجمهورية العراقية، (١٩٧٦).

البيضاوي، ناصر الدين. *أنوار التنزيل وأسرار التأويل*. المحقق: محمد المرعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي: بيروت، (١٤١٨).

الجزائري، نور الدين. *معجم الفروق اللغوية*. الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري، وجزءًا من كتاب فروق اللغات، ط١، قُم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، مكتبة بصيرتي: (١٤١٢).

الجوهري، عبد الهادي. *تاريخ الفكر الاجتماعي*. مكتبة زهراء الشرق: القاهرة، (١٩٩٩).

الجوهري، محمد. *المدخل إلى علم الاجتماع*. القاهرة، (٢٠٠٧).

الحموي، أحمد. *غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر*. ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، (١٩٨٥).

الحنبلي، ابن رجب. *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. تحقيق: محمود شعبان، وآخرون، ط١، مكتبة الغرباء الأثرية: المدينة النبوية، (١٩٩٦).

السجستاني، أبي داود، سليمان. *سنن أبي داود*. المحقق: محمد محيي الدين، المكتبة العصرية: صيدا، بيروت.

السعدي، عبد الرحمن. *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*. المحقق: عبد الرحمن اللويحق، ط١، مؤسسة الرسالة: (٢٠٠٠).

الرازي، فخر الدين. *التفسير الكبير*. ط٣، دار إحياء التراث العربي: بيروت، (١٤٢٠).

الزجاج، إبراهيم، السري. *معاني القرآن وإعرابه*. المحقق: عبد الجليل شلبي، ط١، عالم الكتب: بيروت، (١٩٨٨).

الزيداني، مظهر الدين. *المفاتيح في شرح المصابيح*. ط١، دار النوادر، وزارة الأوقاف الكويتية: (٢٠١٢).

الشوكاني، محمد. *فتح القدير*. ط١، دار ابن كثير: بيروت، (١٤١٤).

الشيباني، إسحاق. *الجيم*. المحقق: إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية: القاهرة، (١٩٧٤).

الطبري، محمد، جرير. *جامع البيان عن تأويل أي القرآن*. تحقيق: عبد الله التركي، ط١، دار هجر للطباعة: القاهرة، مصر، (٢٠٠١).

الطبراني، سليمان. *المعجم الأوسط*. المحقق: طارق عوض الله، عبد المحسن الحسيني، دار الحرمين: القاهرة، (١٩٩٥).

العبادي، ضاري. *سيكولوجية عادات العقل والسلوكيات الذكية: التعود العقلي*. مكتب اليمامة للطباعة والنشر: بغداد، العراق، (٢٠١٩).

العسقلاني، أحمد ابن حجر. *فتح الباري بشرح صحيح البخاري*. ط١، المكتبة السلفية: مصر، (١٣٨٠).

العسكري، الحسن. *الفروق اللغوية*. حققه: محمد سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع: القاهرة، مصر.

القرشي، عبد الله، وهب. *الجامع في الحديث*. تحقيق: مصطفى أبو الخير، ط١، دار ابن الجوزي: الرياض، (١٩٩٥).

القدوري، أحمد. *التجريد*. تحقيق: مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية، ط٢، دار السلام: القاهرة، (٢٠٠٦).

القرطبي، محمد. *الجامع لأحكام القرآن*. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية: القاهرة، (١٩٦٤).

القزويني، أحمد. *مجمل اللغة*. تحقيق: زهير سلطان، ط٢، مؤسسة الرسالة: بيروت، (١٩٨٦).

النسفي، نجم الدين. *التيسير في التفسير*. المحقق: ماهر أديب، وآخرون، ط١، دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث: إسطنبول، تركيا، (٢٠١٩).

المعلمي، عبد الرحمن. *الفوائد اللغوية*. المحقق: علي العمران، نبيل السندي، ط١، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع: (١٤٣٤).

النووي، يحيى. *المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج*. ط٢، دار إحياء التراث العربي: بيروت، (١٣٩٢).

النيسابوري، مسلم، الحجاج. *صحيح مسلم*. المحقق: محمد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي وشركاه: القاهرة، (١٩٥٥).

الهروي، محمد. *تهذيب اللغة*. المحقق: محمد عوض، ط١، دار إحياء التراث العربي: بيروت، (٢٠٠١).

الهُنائي، علي. *المُنَجَّد في اللغة*. تحقيق: أحمد مختار، ضاحي عبد الباقي، ط٢، عالم الكتب: القاهرة، (١٩٨٨).

برافين، لورانس. *علم الشخصية*. ترجمة: عبد الحليم السيد، أيمن عامر، ط١، المركز القومي للترجمة: القاهرة، (٢٠١٠).

بريل، ليفي. *الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية*. ترجمة: محمود قاسم، مطبعة مصطفى البابي وأولاده: مصر، (١٩٥٣).

بولدراك، راسل. *صعوبة التخلص من العادات، ولِمَ يتمسك بها دماغنا*. ترجمة: عائشة يكن، ط١، الإمارات العربية المتحدة، الدار العربية للعلوم ناشرون: الشارقة، (٢٠٢٢).

جبل، محمد. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم. ط١، مكتبة الآداب: القاهرة، (٢٠١٠).

جرينبرجر، دينيس، كريستين بادسكي. *العقل قبل المزاج: غيّر مشاعرك بتغيير أفكارك*. ط٢، مكتبة جرير: الرياض.

ديوي، جون. *الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني*. ترجمة: محمد لبيب، المركز القومي للترجمة: القاهرة، (٢٠١٥).

رضا، أحمد. معجم *متن اللغة: موسوعة لغوية حديثة*. دار مكتبة الحياة: بيروت، (١٣٨٠).

عبد الحميد، جابر. *مدخل لدراسة السلوك الإنساني*. ط٤، دار النهضة العربية: القاهرة، (١٩٨٦).

عمر، أحمد. *معجم اللغة العربية المعاصرة*. ط١، عالم الكتب: (٢٠٠٨).

عويضة، كامل. *علم نفس الشخصية*. ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، (١٩٩٦).

فندريس، جوزيف. *اللغة*. تعريب: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية: القاهرة، (١٩٥٠).

فيرمان، جي. *بيولوجيا السلوك الديني: الجذور التطورية للإيمان والدين*. ترجمة: شاكر عبد الحميد، ط١، المركز القومي للترجمة: القاهرة، (٢٠١٥).

كوفي، ستيفن. *العادات السبع للناس الأكثر فعالية*. ط٢١، مكتبة جرير: الرياض، السعودية، (٢٠٠٩).

نكري، عبد النبي. *دستور العلماء*. تعريب: حسن هاني، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، (٢٠٠٠).

ناصف، منصور. *التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم*. ط٣، دار إحياء الكتب العربية: مصر، (١٩٦٢).

**الرسائل:**

العزب، إيمان صابر. *وحدة مقترحة لتنمية بعض عادات العقل لدى طلاب الشعب العلمية بكلية التربية جامعة بنها*. بحث مقدم ضمنًا لمتطلبات درجة دكتوراه الفلسفة في التربية، كلية التربية، قسم المناهج وطرق التدريس، جامعة بنها، (٢٠١٢).

**الدوريات:**

العقيبة، هند، هلا قرطالي. العادات الاجتماعية: المفهوم والنشأة والوظائف، *مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، الآداب والعلوم الإنسانية*، ٤٣(٤)، (٢٠٢١).

جعرير، سليمة. عادات العقل وعلاقتها بالتفكير ما وراء المعرفي لدى الطلبة الجامعيين. *مجلة أفكار وآفاق*، ١٠(١)، (٢٠٢٢)، جامعة قسنطينة، الجزائر.

علي، هالة بكر. العادات الاجتماعية رؤية تحليلية. *المجلة العلمية، كلية الآداب، جامعة أسيوط*، ع(٦٨)، أكتوبر، (٢٠١٨).

مقداد، سمر. *دور الدعاة في تصحيح العادات الاجتماعية لدى المرأة الفلسطينية في ضوء المعايير الإسلامية وسبل تطويره*. رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، قسم أصول التربية، تربية إسلامية، كلية التربية، (٢٠١٤).

منذر بشارة. أثر استراتيجية مبنية على تفعيل عادات العقل في تعديل المفاهيم البديلة في العلوم وتنمية مهارات العلم الأساسية لدى طلبة المرحلة الأساسية. *مجلة دراسات العلوم التربوية، الجامعة الأردنية*، ٤٣(١)، (٢٠١٦).

وجود الخالدي. عادات العقل وعلاقتها بالقدرة العقلية وفق نظرية ستيرنبرج لدى الطالبات الموهوبات في مدينة الدمام. *المجلة العلمية*، كلية التربية، جامعة أسيوط، ٣٥(٨)، ج٢، أغسطس (٢٠١٩).

الاتجاهات نحو العادات والتقاليد كظواهر اجتماعية في المجتمع الأردني. *مجلة كلية التربية*، جامعة الأزهر، ع(١٧٠)، ج٣، أكتوبر، (٢٠١٦).